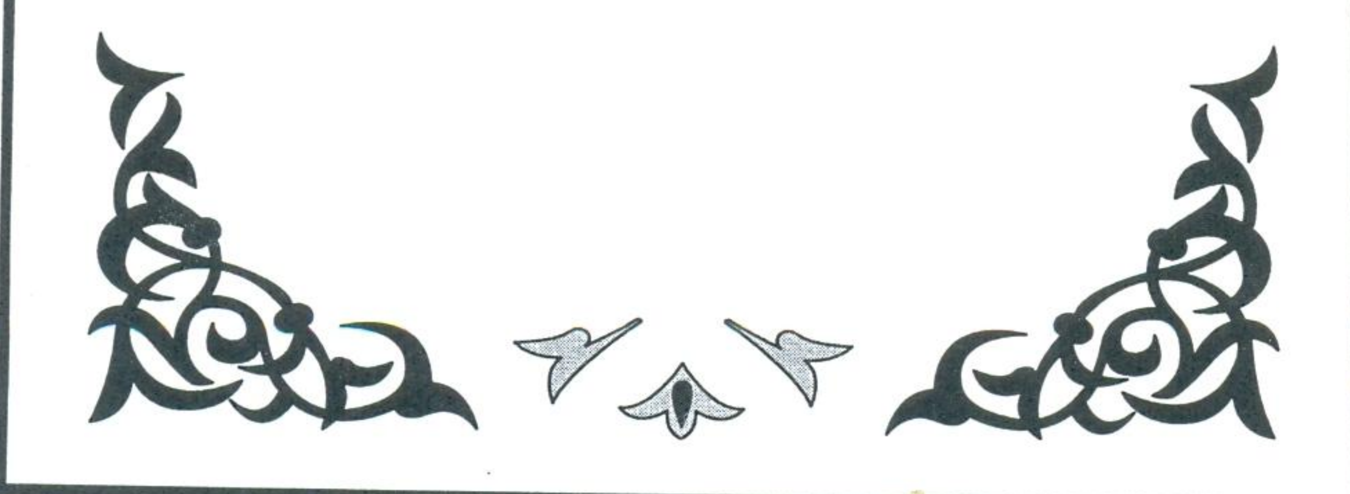


المحاضرة الخامسة

# محاسبة النفس

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي



بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

**وبعد...**

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وإنّ ما قَلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وإن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين.

اعلم أخي المسلم ـ وفقك الله ـ أن النفس البشرية كالطفل إن أدبتها وهذبتها صلحت، وإن أهملتها وتركتها خابت وخسرت، أو كالبعير إن عقلتها ثبتت، وإن تركتها شردت.

ومن هذا المنطلق كتبت هذه الكلمات في محاسبة النفس، وترويضها لكي تكون دافعًا لي ولإخواني في محاسبة أنفسنا، ومعاملتها بما تستحق.

وقد قسمت هذه الكلمة إلى ثلاثة فصول:

**الفصل الأول:** في وجوب محاسبة النفس.

**الفصل الثاني:** في فوائد محاسبة النفس.

الفصل الثالث: في كيفية محاسبة النفس.

وأسأل الله - تبارك وتعالى - أن يرزقنا الإخلاص في الأقوال والأفعال، والحركات والسكنات.

وصل اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه

أفقر الخلق إلى الله

وحيد بن عبد السلام بالي

مدينة أبها في غرة شهر شعبان من عام ١٤١٠هـ

# النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

## أولاً: النوايا العامة:

١ - ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «بلِّغوا عني ولو آية» رواه البخاري.

٢ - رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[١] .

٣ - رجاءأن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[٢] .

٤ - ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ - ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة - عند من يرى جواز ذلك من الفقهاء - لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدّة لله في بيت الله.

٦ - رجاء الحصول على أجر الخطوات إلى المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[٣] .

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روى الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم على ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة».

٧ - رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[١].

٨ - رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً. فيأخذ مثل أجره[٢].

٩ - ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[٣].

١٠ - ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - بالحكمة والموعظة الحسنة - إن وجد ما يقتضي ذلك[٤].

١١ - ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**». رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

- ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحة أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه.

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة».
- وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه».

(٢)، (٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم».
- وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير».
وصلاة الملائكة الاستغفار.

## ثانيًا: النوايا الخاصة:

١ ـ ينوي بذلك تذكير نفسه أولاً بأمر المحاسبة .

٢ـ ينوي بذلك حث المسلمين على محاسبة أنفسهم .

٣ ـ ينوي بذلك تعريف المسلمين بكيفية محاسبة النفس .

٤ ـ ينوي بذلك التعاون مع المسلمين على البر والتقوى .

٥ ـ رجاء أن يتصل عبدٌ بالله بسببك فتأخذ أجره .

## عناصر المحاضرة:

١ ـ وجوب محاسبة النفس .

٢ ـ فوائد محاسبة النفس .

٣ ـ كيفية محاسبة النفس .

* * *

# الفصل الأول

## وجوب محاسبة النفس

إن النفس بطبيعتها تميل إلىٰ الشهوات واللذات والهوىٰ، فلابد إذن من محاسبة هذه النفس، ومنعها عن الشر، ودفعها إلىٰ الخير، فهي المَيْدَانُ الأول الذي يجب الاهتمام به، فمنها يفلح الإنسان، ومنها يخسر، ولقد أقسم المولىٰ تبارك وتعالىٰ في كتابه الكريم أنه لا فلاح ولا نجاح إلا بتزكية النفس وتطهيرها، ثم بيّن بعد ذلك أن إهمالها وتركها في المعاصي موجبٌ للخسران الذي ما بعده خسران فقال: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ١ - ١٠].

**قال قتادة:** قد أفلح من زكىٰ نفسه بالطاعة، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل.

وقد جاء الأمر الإلهي للمؤمنين جميعًا بمحاسبة النفس، حيث قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر: ١٨].

قال ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾: أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم، وعرضكم علىٰ ربكم.

ثم قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم، وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير. اهـ.

وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

يخبرنا الله في هذه الآية أنه قد أحاط بخلقه علماً، فهو سامع لكلامهم، راءٍ لمكانهم حيث كانوا، وأين كانوا.

ومن هنا وجب على المسلم أن يلبي نداء الله عز وجل، فيحاسب نفسه، ويعاقبها على التفريط، ويعاتبها على التقصير، وكيف لا يحاسب المسلم نفسه وهو يعلم أن الله يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور؟!

وعن شداد بن أوس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأمَانَّي**» رواه الترمذي، وحسَّنه، وقال الترمذي: «دان نفسه»: حاسبها.

وفي البخاري، عن أنس رضي الله عنه قال: «**إنَّكُم لتَعْمَلُوْنَ أعْمَالاً هيَ أدَقُّ في أعْيُنِكُم من الشَّعْرِ، إنْ كُنَّا لنَعُدُّها على عهد النبي ﷺ من المُوبِقاتِ**».

**قال البخاري - رحمه الله -:** يعني بذلك المهلكات.

**وذكر الإمام أحمد - رحمه الله -:** عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قَبْلَ أن تُحاسبوا، وزِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، فإنَّهُ أهون عليكم في الحساب غداً أن تُحاسِبُوا أنفسكُم اليومَ، وتَزَيَّنُوا للعَرْضِ الأكبرِ، يومئذٍ تُعْرَضُوْنَ لا تخفى منكم خافية».

**وقال الحسن البصري - رحمه الله -:** «إن المؤمن - والله - ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يَسْتَقْصِرُها في كل فعل فيندم ويلوم نفسه. وإن الفاجر ليمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه».

**(يستقصرها):** يعني يتهمها بالتقصير.

فكن أخي المسلم ممن يحاسب نفسَهُ ولا تكن الآخر.

وقال قتادة - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]: «أضاع نفسه وغبن، ومع ذلك تراه حافظًا لماله مُضيعًا لدينه».

**وقال ميمون بن مهران:** «لا يكون العبد تقيًا حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشريك لشريكه. ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوَّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك».

وقال ميمون بن مهران أيضًا: «إنَّ التَّقِيَّ أشدُّ محاسبة لنفسه من سلطان عاصٍ ومن شريك شحيح».

**وذكر الإمام أحمد، عن وهب قال:** مكتوب في حكمة آل داود «حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، وَيصْدُقُونَهُ عن نفسه، وساعة يُخَلِّي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يَحِلُّ وَيَجمُلُ، فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات، وإجمامًا للقلوب».

**وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله:** «حَاسِب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضا والغِبْطَةِ، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة».

**قال الحسن:** «المؤمن قَوَّام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير مُحاسبة، إن المؤمن يُفاجِئه الشيء ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات حيلَ بيني وبينك، ويَفْرُطُ منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا؟ مالي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يَسْعى في فِكَاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره، وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله».

**قال مالك بن دينار:** «رَحِمَ الله عبداً قال لنفسه: ألَسْت صاحبةَ كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمّهَا ثم خطَمَها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائداً».

❊ ❊ ❊

# الفصل الثاني

## فوائد محاسبة النفس

**إن لمحاسبة النفس فوائد كثيرة منها:**

**أولاً: الاطلاع على عيوبها:**

إن من مداومة الإنسان على محاسبة نفسه يعلم عيوبها، وَزَلاتها، ومواطن الضعف فيها، فيبدأ بعلاجها، وَوَصفِ الدَّواءِ لها، ولكن لا يَتَسَنَّىٰ ذلك إلا بعد معرفة مواطن الداء.

**ولذلك قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:** «ومن لم يَطَّلعْ علىٰ عَيْبِ نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطَّلع علىٰ عيبها مَقَتَها في ذات الله».

وقد رویٰ الإمام أحمد، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: «لا يَفْقَه الرجل كل الفقه حتىٰ يَمْقُتَ الناس في جنب الله، ثُمَّ يرجع إلىٰ نفسه فيكون لها أشدَّ مقتًا».

**وقال مطرف بن عبد الله:** «لولا ما أعلم من نفسي لقليت[1] الناس».

**وقال أبو بكر بن عبد الله المزني:** «لَمَّا نَظَرْتُ إلىٰ أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم»

ولما احتضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب وحماد بن سلمة، فقال له حماد: يا أبا عبد الله أليس قد أمِنْتَ ممّا كنت تخافه؟ وَتَقْدُم علىٰ من ترجوه وهو أرحم الراحمين؟ فقال: يا أبا سلمة أتطمع لمثلي أن يَنْجُوَ من النار؟ قال:

---

(١) قليتُ: بغضتُ

إي والله إني لأرجو ذلك.

**وذكر عن مسلم بن سعيد الواسطي قال:** أخبرني حماد بن جعفر ب
زيد: أن أباه أخبره قال: «خرجنا في غزاة إلىٰ كائل، وفي الجيش (أُشَيْم ب
صلة) فنزل الناس عند العتمة، فصلوا ثم اضطجع فقلت: لأرمقن عمله
فالتمس غفلة الناس حتىٰ إذ قلت: هدأت العيون، وثب فدخل غيضة قريبًا م
فدخلت علىٰ إثره، فتوضأ ثم قام يصلي وجاء أسد حتىٰ دنا منه، فصعدت في
شجرة، فتراه التفت أو عدّه جروًا؟ فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس
ثم سلم، ثم قال: أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر، فولىٰ وإن له لزئير
أقول: تصدع الجبال منه، فما زال كذلك يصلي حتىٰ طلع الصبح، ثم جلس
فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني م
النار، ومثلي يصغر أن يجترئ أن يسألك الجنة، ثم رجع. وأصبح كأنه با
علىٰ الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله عالم به».

وهكذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحاسبون أنفسهم، فأثمر
المحاسبة استصغار العمل، ودنو الأجل، واتهام النفس.

**فهذا محمد بن واسع يقول:** «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس
إليَّ».

**وذُكِرَ داود الطائي** عند بعض الأمراء فأثنوا عليه فقال: «لو يعلم الناس
بعض مَا نحن فيه ما ذلَّ لنا لسان بذكر خير».

**وقال أبو حفص:** «من لم يتهم نفسه علىٰ دوام الأوقات، ولم يخالفها في
جميع الأحوال، ولم يجرها إلىٰ مكروهها في سائر أوقاته، كان مغرورًا ومن
نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها».

واعلم أخي المسلم أن الاطلاع على عيوب النفس يثمر مقت النفس وازدراءها، وهذا يرفع العبد عند الله درجات.

**قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:** «ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو به العبد من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف ما يدنو بالعمل».

**وقال الإمام أحمد:** حدثنا محمد بن الحسن بن أنس، حدثنا منذر، عن وهب «أن رجلاً سائحًا عَبَد الله عز وجل سبعين سنة، ثم خرج يومًا فقلَّل عملَه وشكا إلى الله تعالى منه، واعترف بذنبه، فأتاه آتٍ من الله فقال له: إن مجلسك هذا أحب إليَّ من عملك فيما مضى من عمرك».

وليست هذه دعوة إلى ترك العمل والتفرغ للعبادة، ولكنها تنبيه للعبد أن يجتهد في العبادة، وليعلم أنه مقصر في حق مولاه الذي أنعم عليه بنعم لا تعد ولا تحصى، وهذا من صفات الصادقين.

ولكن الهدف من الاطلاع على عيوب النفس وآفاتها هو معالجتها كي تُشفى من هذه الأمراض، وتتخلص من هذه العيوب، وبذلك يتقي الإنسان نفسه، ويطهرها، ويزكيها، وهذا هو طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩].

## ثانيًا: الاستعداد للرحيل

واعلم أخي المسلم أن محاسبة النفس تجعلك دائم الاستعداد ليوم القيامة تُعِدّ الزاد، وتستكثر منه، وليعلم كل مسلم أنه ليس للمرء في الدنيا مقام، ولا عليها قرار، فالآخرة خير لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلاً، يوم القيامة يوم الحسرة والندامة ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ**

أنَّ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠] يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَت يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ: ٤٠]. يومها لا يعرف أحدٌ أحدًا، ولو كان قريبًا، أو عزيزًا، بل لو كان أباه، أو أخاه، أو أمه، أو ابنه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

ألا يكفي ذلك زجرًا للعاصي، وتنبيهًا للغافل، وإيقاظًا للنائم، وتذكيرًا للناسي، فيهبوا جميعًا ويتوبوا إلىٰ ربهم، ويعودوا إلىٰ منهاج نبيهم، ويقطعوا عهدًا جديدًا مع ربهم، ويعدوا الزاد ليوم الميعاد، ويستكثروا من الخيرات قبل فوات الأوان: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

**قال الفضيل بن عياض:** «المؤمن في الدنيا مهموم حزين، همه مرمة جهازه، ومن كان في الدنيا كذلك، فلا هم له إلا التزود بما ينفعه عند العودة إلىٰ وطنه، فلا ينافس أهل البلد - الذي هو غريب بينهم - في عزهم، ولا يجزع من الذل عندهم».

**وقال أيضًا:** «إنما أنت أيام مجموعة كلما مضىٰ يوم مضىٰ بعضك».

**وقال داود الطائي:** «إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتىٰ ينتهي ذلك بهم إلىٰ آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمدك، فكأنك بالأمد قد بغتك».

واعلم أخي المسلم أنك من الدنيا مسافر، فلابد من الزاد لهذا السفر الطويل، والأمر الخطير. وقد أحسن من قال:

سَبِـيلكَ في الدُّنْيا مُسافر ... ولابُدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مُسَافِرِ
ولابُدَّ للإنْسَانِ مِنْ حَمِلْ عُدَّة ... ولا سِيَّمَا إنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرِ

وقال بعض الحكماء: «من كانت الأيام والليالي مطاياه سارت به، وإن لم يسر».

وفي هذا المعنىٰ قال بعضهم:

ومَا هذه الأيامُ إلا مراحلُ ... يحثُّ بها داعٍ إلى الموت قَاصد
وأعجبُ شيءٍ لوْ تأمَّلتَ أنَّها ... منازلُ تُطوَى والمُسَافِرُ قَاعِدُ

وقال بعضهم:

نَسيْرُ إلى الآجال في كُلِّ لَحْظَة ... وأيَّامُنَا تُطوَى وَهُنَّ مَرَاحلُ
ولَمْ أرَ مثْلَ الموْتِ حقًّا كأنَّهُ ... إذا ما تخطَّتْهُ الأمانيُّ بَاطِلُ
وما أقبَحَ التفريطَ في زمنِ الصِّبا ... فكيف والشيبُ للرأس شاغل
تَزَوَّدْ من الدنيا بزادٍ مِنَ التُّقَى ... فَعُمُرُكَ أيَّامٌ وَهُنَّ قلائلُ

فإذا كان الموت قد أحاط بنا من كل جانب، والأيام والليالي تنقلنا من هذه الدنيا، فما العمل؟ العمل ما تجده في قول الفضيل بن عياض - رحمه الله - حيث قال لرجل: كم أتت عليك؟ فقال الرجل: ستون سنة. قال الفضيل: فأنت منذ ستين سنة تسير إلىٰ ربك يوشك أن تبلغ.

**فقال الرجل:** إنا لله وإنا إليه راجعون.

**قال الفضيل:** أتعرف تفسير ما قلت؟ من عرف أنه لله عبد، و إنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فَلْيَعُدَّ للسؤال جوابًا.

**فقال الرجل:** فما الحيلة؟

**قال:** يسيرة.

**قال:** ما هي؟

**قال:** تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضىٰ، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضىٰ وما بقي»

وفي هذا المعنىٰ قال بعضهم:

**وإن المرْءَ قـدْ سَـارَ سِتِّينَ حَـجَّـةٍ إلى منْهَـلٍ وِرْدُهُ قَـــرِيبُ**

**ثالثًا: تولُّد خلق الحياء من الله:** لأن المسلم إذا حاسب نفسه علىٰ التفريط والتقصير في جنب الله تعالىٰ، ورأىٰ نعم الله إليه نازلة ومعاصيه وذنوبه إلىٰ ربه صاعدة، علم قدر نفسه وهوانها، وتولد عنده خُلُقُ الحياء من الله تبارك وتعالىٰ، وقد قال النبي ﷺ: «الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ». متفق عليه.

**رابعًا: الازدياد من العمل الصالح:** ومحاسبة النفس تدفع العبد علىٰ الإزدياد من العمل الصالح، والتزود من الدنيا قبل الرحيل، لأنه بمحاسبته لنفسه يعلم قدر الدنيا وهوانها، وعظم الآخرة وثوابها، فيرحل بقلبه من الفانية إلىٰ الباقية: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

**خامسًا: دوام الخشية من الله:** إن العبد إذا استمر علىٰ محاسبته لنفسه، وتوبيخها، وتقريعها صار من العارفين بالله، العالمين به علم اليقين الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] لأن العلم إذا لم يزد صاحبه خشية لله فليس بعلم نافع.

فالعلم علمان: علم علىٰ اللسان، وعلم في القلب، فأما العلم الذي علىٰ اللسان فهو حجة الله علىٰ خلقه، وأما العلم الذي في القلب فهو الخشية.

# الفصل الثالث

# كيفية المحاسبة

**يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:** «محاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده».

## فأما النوع الأول:

فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتىٰ يتبين رجحانه علىٰ تركه. قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «رحم الله عبدًا وقف عند هَمِّه، فإن كان لله مضىٰ، وإن كان لغيره تأخر».

## أما النوع الثاني:

محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

**أحدها:** محاسبتها علىٰ طاعة قصرت فيها من حق الله تعالىٰ فلم توقعها علىٰ الوجه الذي ينبغي. وحق الله تعالىٰ في الطاعة ستة أمور هي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

**الثاني:** أن يحاسب نفسه علىٰ كل عمل كان تَرْكُهُ خيرًا له من فعله.

**الثالث:** أن يحاسب نفسه علىٰ أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح،

ويفوته الظفر به؟ اهـ.

وغاية ذلك أن يحاسب العبد نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر فيها نقص
تداركه إما بقضاء أو إصلاح. ثم يحاسبها على المنهي، فإن عرف أنه ارتكب
منها شيئًا تداركه بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحيات. ثم يحاسب نفس
على الغفلة، فإن قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى،
ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه.

وأخيراً أسأل الله - تبارك وتعالى - أن يعلمنا العلم النافع، ويرزقنا العمل
الصالح، وسبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك
ونتوب إليك.

* * *